الفصل السابع عشر

الفقهاء ينتصرون على الخليفة

هذه الجماعة من الفقهاء أدركت أن الذى يبحث عنه المأمون هو نصر حاسم وواضح على الفقهاء ليكون ذلك إعلاناً صريحاً بأن رياسة أمة الإسلام هى فى الحقيقة لبنى العباس . فقرروا التمسك بالحقيقة وإعلان أن رياسة أمة الإسلام للفقهاء (أى للدين) وعلى رأس هؤلاء أحمد بن حنبل . وأحضر إسحاق بن إبراهيم كبير فقهاء الخليفة لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين فيهم أحمد بن حنبل ، فأدخلوا جميعاً على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه ، ثم قال لبشر ابن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ قال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . قال : أقول : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شىء . قال : القرآن شىء ؟ قال : هو شىء ، قال : مخلوق؟ قال : إنه ليس بخالق . قال : لست أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : لا أحسن إلا ما قلت

لك. وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ما قلت لك .

فأخذ إسحاق من إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ووقفه عليها . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً . لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ، فقال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل : ما تقول يا على ؟ قال : قد سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة ، فامتحنته بالرقعة فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال القرآن كلام الله ، قال لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا مقالته ، فقال للكاتب : اكتب مقالته .

ثم قال للزيال نحواً من مقالته لعلى بن أبى مقاتل ، فقال له مثل ذلك ، ثم قال لأبى حسان الزيادى : ما عندك ؟ قال : سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ووقفه فأقر بما فيها ، ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر . فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم . وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم

صلاتنا وحجنا ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة ، إن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا . قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه إجابة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون إجابة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها . وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرنى به ؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتنى من شيء ، فإن أبلغتنى عنه بشيء صرت إليه ، قال ما أمرنى أن أبلغك شيئاً ، قال على بن مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان : ما عندى إلا السمع والطاعة ، فمرنى أأتمر . قال ما أمرنى أن آمرك وإنما أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل فقال : ما تقول فى القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها. فامتحنه بما فى الرقعة ، فلما أتى على « ليس كمثله شيء » قال ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأمسك عن «لا يشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه » فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله، إنه يقول : سميع من أذن بصير من عين . فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال: معناه ؟ قال : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

ثم دعاهم رجلاً رجلاً ، كلهم يقول : القرآن كلام الله إلا هؤلاء النفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُليَّة الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبه ، والمظفر بن مرجا ، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه ، ولا يعرف بشيء منه إلا أنه دس فى هذا الموضوع ، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة ، وابن الأحمر . فأما ابن البكاء الأكبر فقد قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (سورة الزخرف ٣) والقرآن محدث لقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢) قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق ؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق ؟ قال : لا أقول : مخلوق ، ولكنه مجعول ، فكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله ! إن هذين القاضيين إمامان ، فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لنحكى ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدت عندهما بشهادة فاستمع مقالتهما إن شاء الله .

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً ، ووجهت إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم .

وطبعاً لم يكن فى رد أمير المؤمنين إلا الحملة على أولئك الناس ووصفهم بمتصنعة أهل القبلة وملتمسى الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القرآن .

ثم يحمل المأمون على أولئك الرجال واحداً واحداً ويهينهم ، ويقول : فأما ما قال المعرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام فى ذلك واستعهاده أمير المؤمنين ـ فقد كذب بشر فى ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن قد جرى بينه وبين أمير المؤمنين فى ذلك ولا فى غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك وأعلمه ما أعلمك أمير المؤمنين . وانصصه عن قوله فى القرآن واستتبه حقه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب عنها فاشهر أمره وأمسك عنه ، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده فاضرب عنقه . وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما على بن أبى مقاتل فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره ؟! .

وأما الزيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين ابن العباس وما يشغله وإنه لو كان مقتفياً آثار سلفه ، وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمان .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام وقوله : إنه يحسن الجواب فى القرآن فأعلمه أنه صبى فى عقله لا فى سنه ، جاهل ، وأنه إن كان يحسن الجواب فى القرآن جاهل ، وإن كان لا يحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب ، وإن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

أما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكان رغبته ـ فى الدينار والدرهم ـ رغبته ، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما وإيثاراً لعاجل نفعهما ،

وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال ، والمخلف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ونقله إلى غيره ؟

وأما الزيادى فإنه كان منتحلاً ، ولا كأول دعى كان فى الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ ، وكان جبريل إن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد . أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه نسب إلى زياد .

وأما المعروف بأبى نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره .

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعه إياها عبد الرحمن بن إسحاق تربصاً بمن استودعه . وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ولا سبيل عليه من تقادم عهده وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن ابن إسحاق : لاجزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وأُتمانك إياه ، وهو معتقد للشركة منسلخ من التوحيد !

وأما محمد بن حاتم وابن نوح المعروف بأبى معمر فاعلمهما أنهما مشغولان بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد . وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهما فى الله ومجاهدتهما إلا لإربائهما ، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهما ـ لاستحل ذلك ، فكيف بهما وقد جمعا مع إياه شركاً وصارا للنصارى مثلاً ؟

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام ، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه .

وهكذا يستمر خطاب المأمون فى بيان ما زعمه من نقائص الفقهاء ، بدلاً من أن يحاول إقناعهم بوجهة نظره ؛ لأنه فى الحقيقة لم تكن له وجهة نظر ، ولو أن أولئك الفقهاء وافقوه على رأيه لما كشف عيوبهم تلك . بل إنه أحياناً يذكر من عيوب أولئك الناس أشياء لا يجوز السكوت عليها بحال إذا صدقت ، فيقول مثلاً : إن سعدويه الواسطى قال له ، قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرئاسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن ، فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكه لإصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله فى التوحيد وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما .

وقد كان أمير المؤمنين قد وجه إليك المعروف بأبى سهر بعد

أن نصه أمير المؤمنين على محنته فى القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فاقر ذميماً ، فانصصه عن إقرار ، فإن كان مقيماً عليه فاشهر ذلك وأظهره إن شاء الله .

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أميرالمؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ولم يقل : إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى ـ فاحملهم أجمعين موثقين إلى معسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم إليه لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وهذا ليس حديثاً فى الدين أو مناقشة فى عقيدة ، إنما هو إرهاب للناس . فمن قال ما يريد أمير المؤمنين سكت عنه وتركه ، ومن لم يقل فضحه ثم قتله .

ورجل واحد ثبت على رأيه وكلامه ؛ لأنه لم تكن له عيوب دينية أو أخلاقية يأخذها عليه المامون ، وهو أحمد بن حنبل ، وهنا نجده وقف عاجزاً لا يستطيع شيئاً . لقد حبسه وضربه دون أن يخرج منه بأدنى نتيجة . وحاول إخوان أحمد بن حنبل أن يصرفوه عن رأيه فرفض وانهزم أمامه المامون ، وخرج الفقهاء من محنة خلق القرآن منتصرين .

والحقيقة أن السيف أخاف كل الفقهاء إلا أربعة على رأسهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المعزوب ، فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا ، فشدا جميعاً فى الحديد ووجها إلى طرسوس ، وكتب معهما كتاباً بأشخاصهما وكتب كتاباً معزواً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه ، فمكثوا أياماً ثم دعا بهم فإذا كتاب قد ورد من المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم أن قد فهم أمير المومنين ما أجاب القوم إليه .

وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى فى عمار بن ياسر ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ (سورة النحل ١٠٦) وقد أخطأ التأويل . إنما عنى الله ـ عز وجل ـ بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر الشرك ، فأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له فأشخصهم جميعاً طرسوس ؛ ليقيموا بها إلى خروج أميرالمؤمنين من بلاد الروم .

وقد أراد إسحاق بن إبراهيم أن يعاقبهم ، ولكنه لم يستطع ؛ لأن المأمون توفى سنة ٢١٨هـ - ٨٣٣م وكانت سنه إذ ذاك ٤٨ سنة هجرية ، وهى سن صغيرة جداً تؤكد مالاحظته فيما سبق من وفاة العباسيين فى سن صغيرة لسبب لا نعرفه فعلاً ، ولكن الظاهرة غير طبيعية ، فهؤلاء ناس يموتون فى سن لا تصدق ولأسباب غير واضحة ، فلماذا مات المأمون فى هذه السن ؟ ولو أن المؤرخين قالوا لنا لاقتنعنا ، ولكننا نقف هنا متعجبين ؛ لأن هذا الرجل مات فى السن التى مات فيها أبوه تقريباً (سبعة وأربعين سنة وشهوراً) .

على أى حال مات دون أن يبلغ على الفقهاء أى نصر ، مات وأحمد بن حنبل فى أوجه ، يؤكد للناس بإصراره وأخلاقه أن زعامة أمة الإسلام للحق لا للقوة . وبهذا يكون المأمون قد أكمل العمل الذى بدأه أبوه الرشيد وأخوه الهادى ، وهو هدم الدولة العباسية التى قامت على غير حق ، واستمرت على غير حق ، وانتهت بتلك النهاية الخسيسة .

وقد شعر فقهاء المأمون بخيبة أمل ؛ لأنهم كانوا يرجون أن يتركوا كبار الفقهاء ويعلنوا أنفسهم رؤساءهم فلم يوفقوا . وإسحاق بن إبراهيم الذى تولى محاكمة الفقهاء لم يدر ماذا

يعمل ، ويبدو أنه فوجئ بموت المأمون ، وكانت نيته أن يرسل الفقهاء إلى المأمون بطرسوس ، فتوفى المأمون قبل ذلك ، وكان الفقهاء قد بلغوا الرقة فحبسهم واليها ثم خلى سبيلهم بعد ذلك .

وقد أوصى المأمون قبل موته بأن يخلفه أخوه أبو إسحاق الذى تلقب بالمعتصم ، ومن غريب ما يحكى الطبرى أن المأمون - وكان عليلاً - كان جالساً على شاطئ نهر فى بلاد الروم يسمى اليدندون ، وكان يستعذب ماء هذا النهر ويجده أحلى ماء فى الدنيا ، وتمنى أن يجيئه رطب يسمى رطب الأزاد ليأكله مع ذلك الماء ، فجاء هذا الرطب وأكل المأمون وأخوه وسعيد العلاف القارئ فمرضوا جميعاً ، والمأمون الذى أكل أكثر من غيره مات من هذا الرطب ، فهل يمكن أن يقال : إن هذا الرطب كان مسموماً؟ ربما .

على أى حال مات المأمون ، وتولى أبو إسحاق المعتصم ، وقد أصر على سياسة أخيه فى مسألة خلق القرآن دون أن يصل إلى نتيجة .

فهل كان العلويون أحق من العباسيين بالخلافة ؟

لا ، لم يكونوا .

لأن الخلافة ملك الأمة ، الأمـة هى التى تختار الخلفاء ، وهى التى تعـزلهم أيـضاً إذا لـم يحـسنوا الخـلافـة ، وهذا هو الذى ينبغى أن نقرره دائماً .

وسنرى فـيـمـا بعد أخـطاء أخرى وقع فـيـهـا خلفـاء بنى العبـاس ، فأكدوا بها ضياع خلافتهم .

★★★